The mechanism of Involution and its role in textual analysis method: Interpretation from Sheikh Muhammad Al-Yaqoubi's "Nour alqran = light of the Qur'an" as a model.

Researcher: Intisar Abdel Hafez Dakhl
University of Basrah / College of Education at Qurna
E-mail: Entisaralmayahee@gmail.com

Assistant Professor Dr. Wissam Jumaa Al-Maliki's
University of Basrah / College of Education at Qurna
E-mail: weesam.lafta@uobasrah.edu.iq

Abstract:

The Involution mechanism is one of the lexical and verbal means that plays a prominent role in the cohesion of texts and achieving their consistency. In the continuity of meanings in it through what the incoming words provide from a moral atmosphere charged with that message based in the depth of the text, so this mechanism and its impact on analyzing texts and showing the extent of their textual and cohesion.

Key words: Involution - textual analysis - Nour alqran " light of the Qur'an"

آليَّةُ التَّضـامِّ و دورُها في منـهجِ التَّحليلِ النَّصّي
تفسير مِنْ نورِ القرآنِ للشيخ مُحمَّد اليعقوبيّ – إنموذجاً –(*)

الباحثة: انتصار عبدالحافظ داخل أ.م.د. وسام جمعة لفتـة المالـكي
جامعة البصرة / كلية التربية / القرنة
E-mail: Entisaralmayahee@gmail.com E-mail: weesam.lafta@uobasrah.edu.iq

الملَخّـــــص

تُعدُّ آليّة التضام من الوسائل اللفظيّة المعجميّة التي تؤدّي دوراً بارزاً في تماسك النصوص وتحقيق اتساقها، وهي تعتمدُ بصورة كبيرة على المعجم وما تحويه مفرداته من توسّع دلالي مع إحاطة أو معرفة المتلقّي بتلك الدلالات، وتنبع أهمية ظاهرة التضام من مسيرها الطولي في داخل النّص، فهي تتحكّم في استمرارية المعاني فيه عن طريق ما توفّره الألفاظ المتواردة من جوٍّ معنويٍّ مشحون بتلك الرسالة المرتكزة في عمق النّص، لذا فلا يمكن إغفال هذه الآليّة وأثرها في تحليل النصوص وبيان مدى نصيّتها وتماسكها..

الكلمات المفتاحية : التضام . التحليل النصي . تفسير من نور القران.

* بحث مستل من رسالة الماجستير الموسومة :**تفسير من نور القرآن للشيخ محمد اليعقوبي دراسة في ضوء لسانيات النص.**

مدخل نظري:

التضام أو المصاحبة المعجمية، هو المظهر الثاني من مظاهر الاتِّساق المعجمي ذات القيمة البلاغية التي ((أدمجها البلاغيون العرب القدامى في باب البديع وسموها (مُحسّنات بديعيّة)، ومنهم مَن وقف عند إحصائها دونما أي تعليق، اللهمَّ إلا ما كان من إشارة إلى دورها في تحسين الكلام، ومنهم مَن أشار إلى وظيفتها في الجمع بين شيئين أو أشياء في بيت أو خطاب معيّن))[١]، والتضام من ضمِّ الشيء إلى الشيء والمقصود بهذا النوع من الاتِّساق المعجمي أنّه ((توارد زوج من الكلمات بالفعل او بالقوّة نظرًا لارتباطِها بحكم هذه العلاقة أو تلك))[٢]، بمعنى أنَّ تواردهما أو تلازمهما معاً، واقع فعلاً، أو أنه ليس من المستحيل أن يقـعَ.

وفكرة التوارد هذه ((هي الضلـع الأخير من مثلث التّضام، وهي الضلع المرتبط بالمقام من بينها، وهذا الارتباط يجعل التوارد نحويا في بعض صورِه فقط ، في حين تنطبق صورُه الأخرى على الأسلوبي البلاغي))[٣]، الأمر الذي جعل بعض الباحثين ينحو بظاهرة التّضام إلى المستوى النحوي شأنها في ذلك شأن العلامة الإعرابية، والربط، والرتبة، وغير ذلك من القرائن اللفظية الدالة على المعنى النحوي[٤]، والذي أكّده ديبوجراند بقوله: ((وسائل التضام تشتمل على هيأة نحوية للمركبات والتراكيب والجمل، وعلى أمور مثل التكرار والألفاظ الكنائية والأدوات والإحالة المشتركة والحذف والروابط))[٥]، فهو إذن علاقة نحوية معجمية، ولكن نوردها ضمن العناصر المعجمية للاتساق؛ لأن البحث هنا مقتصرٌ على التنظير والتطبيق للتضام المعجمي؛ ذلك أنَّ التضام النحوي بابه طويل المسلك يشمل كل العناصر النحوية المقترنة ببعضها، كالحروف العاملة وما بعدها، والمضاف إليه والفعل والفاعل، والمبتدأ والخبر وغيرها[٦].

وفي تسميتها بالمصاحبة المعجمية قصد مراعاة التناسب بين الكلمتين المتصاحبتين من جهة، والواقع من جهة أخرى، كما تقول: "بقرة صفراء" ولا تقول: "بقرة خضراء"، كما يُقصد بها التمييز عند الاشتراك في السمات الدلالية، أو لمراعاة شيوع الاستعمال ..[٧].

وجديرٌ بالذكرِ أنَّ ما يُعالج تحت مفهوم التضام، عالجه الإمام عبد القاهر الجرجاني من قبلُ تحت مفهوم النظم والترتيب، وذلك في قوله: (لا نظم في الكلام ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض وتُجعل هذه بسبب من تلك..)، وقد تبِعه النقاد في ذلك حتى من غير العرب، ونجد لدى الناقد الفرنسي "فاليري" الذي يؤكد على الشكل بمعنى الترتيب، أي على الكلمات وقد اتخذت لها ترتيباً معيناً[٨]. فلا يكاد باب من أبواب النحو يخلو من ظاهرة التضام، أمّا في صورتها الإيجابية كالافتقار والاختصاص والتوارد، أو في صورتها السلبية كالتنافي أو التنافر... والمعروف أنّ الافتقار والاختصاص

والتنافر من ظواهر استعمال العناصر التركيبية، وأنّ التوارُد والتنافي من ظواهر استعمال الكلمات المعجمية[٩]، والأولى منهما مُصاحبةٌ مُعجَميّة، والأخرى مُفارقةٌ مُعجَميّة.

والتضامُّ عبارة عن ((تطلُّب إحدى الكلمتين للأخرى في الاستعمال على صورةٍ تجعلُ إحداها تستدعي الأخرى و لا تقف بدونها))[١٠]، وهو هنا غير اتصال اللواصق بالكلمة، فاتصال اللواصق ضم جزء كلمة إلى بقية هذه الكلمة[١١].

ويُعرَف من خلال التضام إمكان التوارد والمعاقبة والتنافي، أو التضاد والتكامل الذي يُظهِر بوضوح أنَّ العنصرين المتكاملَين لا يتعاقبان، أما التتابع فهو المسرح الأصيل لقرينة التضام في السياق[١٢].

إنَّ التّضام في داخل العبارة أو التركيب أو الجملة هو أكثر مباشرة ووضوحاً من التضام القائم بين اثنتين أو أكثر من هذه الوحدات، ومع ذلك يجد المرء أن كيفية بناء هذه الوحدات المحكمة النسج في أثناء الاستعمال الفعلي للنص موضوع جدير بالاهتمام، ومن الناحية الإجرائية يمكننا تصور التراكيب والعبارات الأساسية في لغةٍ ما على أنها تشكيلات من الروابط الكائنة بين أزواج من العناصر يخضع كثير منها لحالات ربط أخرى والمسألة هنا هي معرفة كيفية خلق هذه الروابط والترتيب الذي تنتظم فيه[١٣].

ويمكن فهم التضام على وجهين نوجزهما فيما يأتي[١٤]:

الوجه الأول: إنَّ التَّضامَّ هو الطرق الممكنة في رصف جملٍ ما تختلف طريقة كل منها على الأخرى تقديماً وتأخيراً وفصلاً ووصلاً وهلُمَ جرّا، ويمكن أن نطلق على هذا الفرع من التّضام اصطلاح "التوارد" وهو بهذا المعنى أقرب إلى اهتمام دراسة الأساليب البلاغية التركيبية الجمالية منه إلى دراسة العلاقات النحوية والقرائن اللفظية.

الوجه الثاني: إنَّ المقصودَ بالتضام أن يستلزم أحد العنصرين التحليليَن النحويَن عنصراً آخر فيسمى التضام هنا "التلازم" أو يتنافى معه فلا يلتقي به ويسمى هذا "التنافي" وعندما يستلزم أحد العنصرين الآخر، فإن هذا الآخر قد يدلُّ عليه بمبنى وجودي على سبيل الذكر، أو يدلُّ عليه بمبنى عدَمي على سبيل الاستتار أو الحذف.

وبحسب ما يذهب إليه "هاليداي ورقية حسن" فإنَّ العلاقة النسقية التي تحكم هذه الأزواج في خطاب ما، هي علاقة التعارض، مثلما هو الأمر في أزواج كلمات مثل: ولد، بنت، جلس، وقف، أحب، أكره، الجنوب الشمال؛ أمر، خضع، الخ.. فضلاً عن علاقة التعارض هناك علاقات أخرى مثل الكل – الجزء، أو الجزء – الجزء، أو عناصر من نفس القسم العام: كرسي، طاولة (وهما عنصران من اسم عام هو التجهيز...)، على أن إرجاع هذه الأزواج إلى علاقة واضحة تحكمها ليس دائما أمراً هيِّنًا، هذا إذا كان ممكناً"[١٥].

ويتمُّ الحفاظ على تضام الوحدات المحكمة النسج من مثل العبارات والتراكيب والجمل بالاعتماد على إدخال العناصر في إطار التبعيات القواعدية قصيرة المدى، أما في القطاعات الطويلة المدى من النص فإنَّ العملية الأساسية هي الكشف عن كيفية إعادة استعمال العناصر والأنماط المكتشفة مسبقًا او تعديلها او ضغطها(١٦)، والتضام وثيق الصلة بالسبك؛ لأن موضوعه طرق رصف العناصر اللغوية لتكوين جملة، ورصف الجملة لتكوين نص(١٧).

خلاصةُ الأمر أنَّ التَّضامَّ الذي نعنيه، هو كلُّ لفظينِ أو بابينِ؛ أو لفظٍ وتركيب، أو لفظٍ ومحل، بينهما اقتضاء ضروري "افتقاري" أو غير ضروري "اعتباري".

أنــواعُ التَّضــامّ وعلاقاتــه:

وتُـقسّمُ هذه الظاهرة المُعجمية بحسب السياق المقامي الذي ترِد فيه والدلالة التي تؤديها، إلى عدّةِ أنواعٍ، هي عبارة عن علاقاتٍ تؤدي وظائفَ محدّدة، ((بالرغم من صعوبة تقسيمها؛ لشدَّة التداخل بين هذه الأصناف))(١٨):

التضاد أو التعارض: ((بجميع درجاته، سواء أكان بين الكلمتين تضاد كامل مثل(ولد/ بنت) أم تناقض مثل (أحب/ أكره)، أم تعاكس مثل (أمر/ أطاع))(١٩)، وكذلك ((كلما كان التضاد حادا غير متدرِّج، يكون حينها أكثر قدرة وفعالية على الربط النّصي))(٢٠)، فشعور المتكلمين كما يرى "جون"و"لوينز((يتجه إلى اعتبار أحد المتقابلين في التضاد ذا معنى إيجابي، والآخر ذا معنى سلبي))(٢١).

التقابل: وقد ورد باصطلاح النصيين باسم التضاد، حيثُ تترابط الكلمات مع بعضها الآخر من خلال أشكال التطابق، المكملات والمتعارضات والمقلوبات(٢٢)، وهذه العلاقات ترتبط بين ((طرفين أو موقفين أو حدثين متقابلين))(٢٣).

التنافـر: وهو مرتبط بفكرة النفي، مثل التضاد، مثل كلمات: حروف، فرس، قط، كلب، بالنسبة لكلمة حيوان.

وأيضا مرتبط بالرتبـة مثل: ملازم، رائد، مقدم، عقيد، لواء.

ويمكن أن يكون ذلك مرتبطا بالألوان، مثل : أحمر، أخضر، أصفر... والخ .

أو بعلاقة الجزء بالكل، مثل علاقـة اليد بالجسم، والعجلـة بالسيارة(٢٤).

الارتباط بموضوع معين: حيث يتم الربط بين العناصر المعجمية نتيجة الظهور في سياقات متشابهة، مثل (ماركس، التغير الاجتماعي، صراع الطبقة الاقتصادية..)، وهو ما يسميه (محمد خطابي) علاقة التلازم الذِّكْرِي(٢٥).

كل هذه العلاقات بين الكلمات تخلق في النص ما يُسمى بـ (التضام)، الذي يؤدي إلى خلق نص متماسك ومتّسق، شكليا ودلالياً.

أثَـرُ التَّضـامّ في اتِّسـاقِ النَّص وتماسِكِـه :

يُعد هذا النوع من الربط المعجمي أكثر الأنواع صعوبة في التحليل؛ لأنه يعتمِدُ على المعرفةِ المُسبقةِ للقارئ بالكلمات في سياقات متشابهة، فضلاً عن فهم تلك الكلمات في سياق النَّص المترابط(٢٦).

تعد المصاحبة المعجمية مؤشراً صحيحاً على الأسلوب؛ لأنّ قسماً كبيراً مِمّا يعدُّ أسلوباً لكاتب أو شاعرٍ ما، يكمُن في المصاحبات والألفاظ الخاصّة التي تبرز في نصوصه(٢٧).

تنتج عن المصاحبات المعجميّة في الغالب، الشموليّة؛ لأنّ ورود الزوجين المتقابلين ينتج عنه حصرٌ لجملة المذكورات(!).

إنَّ كثيراً من الأساليب تُحدد درجة الإعلامية فيها بواسطة المصاحبة المعجمية، فلو قيل مثلاً: سفك العدو ... فمفهوم أن المفعول – عموما – هو الدم؛ لاستلزام الفعل (سفك) له، فالسامع يتوقعه بسهولة، وهذا يضعف درجة الإعلامية من وجه، وهو مطلوب من وجه آخر بقدر؛ نظراً لتفعيله دور المتلقي.

إنَّ المصاحبة المعجمية عنصر مهم لفهم النص؛ لأنها مورد من موارد سبكه، وإنها تسهم في بيان المقام الكلامي، ولها دور في درجة إعلامية النص، وتفرض أنماط ورود الكلمات، فحين نقول مثلاً: (أوقفت السيارة ، وفتحت الباب) فالمصاحبة المعجمية هنا هي التي ربطت الباب بالسيارة ربط الجزء بالكل، ففُهِمَ أن المقصود باب السيارة، وجاء اللفظ محددا بالألف واللام – لا الإضافة – اعتمادا على ذلك، وظهر المقام في الجملة الثانية بوضوح.

تعد المصاحبة المعجمية مصدراً للربط بين الكلمات؛ إذ يوجد ربط لفظي بين أزواج من العناصر المعجمية التي تظهر مع بعضها في علاقاتٍ دلاليّة يمكن إدراكها بين الأزواج المرتبطة، والمتضامَّة لفظيّاً(٢٨).

الجدير بالإشارة أنَّ ((كل عنصر معجمي يمكن أن يؤسس علاقة اتِّساق، لكنّ العنصر في ذاته لا يحمل أيّة إشارة عما إذا كان مشتغلاً اتِّساقيا أم لا، لأنّ الاتّساق يتأسس فقط بالإحالة، وأنَّ ورود العنصر في سياق العناصر المتعالقة هو الذي يُهيِّئ الاتساق ويعطي للمقطع صفة النَّص))(٢٩)، بحسب المعنى المشترك(٣٠).

إنَّ علاقات التعارض المعجمي لا تقتصر على المفردات فقط، بل تتعداها إلى الجمل المتعالقة عبر فقرات النص، الأمر الذي من شأنه أن يحدِث تماسكاً واتساقاً في النّص الواحد(٣١).

تطبيقات التَّضامِّ في تفسير من نور القرآن:

١. علاقة التضاد

أشار الشيخ إلى هذه العلاقة الدلالية للربط النّصّي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾ [الأعراف: ١٧]، حيث تحدّث عن الحوار القائم بين إبليس ورب الجلالة تحت عنوان(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) مُفتتِحًا إيّاهُ بالقول: ((هذا واحد من التهديدات التي أطلقها إبليس في جداله مع ربّ العزة والجلال كردّ فعل على طرده من الجنة ومن صفوف الطائعين المرضيين عند الله تبارك وتعالى بسبب استكباره وتمرده عن السجود لآدم الذي كان يمثل النوع الإنساني المستخلف في الأرض، فعزم على الانتقام من الإنسان حسدا له ولأنه كان موضوع الابتلاء والامتحان الذي فشل فيه إذ تصرّح الآية أن السبب الذي برّر به غوايته لبني آدم وسوقهم إلى الضلال أن الأمر بالسجود لهم كان سبب طرده من رحمة الله تعالى))(٣٢).

وتظهر علاقة التضاد بين المفردات (بين أيديهم / خلفهم – أيمانهم / شمائلهم)، إذ يبيّن الشيخ أنَّ هذه ((الصيغة المؤكدة المستعملة في التهديد تدل على الإصرار على الفعل والاستمرار فيه واستعمال الشيطان كل أدواته في التزيين والغواية والتضليل والتمويه والشبهات ونحو ذلك، والإطباق على الإنسان من جميع جهاته))(٣٣)، فهي متحققةٌ بالدرجة الأولى بين الجهات الأربع لقوله (والإطباق على الإنسان من جميع جهاته) ولإشارة البلاغيين أن الطباق مما ينطوي تحته المخالفة التي هي من خصائص التضاد ((فيكون تقابل المعنيين وتخالفهما مما يزيد الكلام حسناً وطرافة))(٣٤).

وكذلك مُتحققة بين جهتين فقط، بالدرجة الثانية وهي المتعاكسة، لقول الشيخ المُفسِّر: ((أما [عن شمائلهم] فالشمال عكس اليمين))(٣٥)، وإنَّ ((العلاقة بينهما علاقة الضد والتكامل))(٣٦)، وقد فسَّر الشيخ قِبلاً لفظ ((**[** عن أيمانهم **]** أي من جهة دينهم؛ لأن اليمين من اليُمن والخير والقوة والسعادة، فيدخل في دينهم ما ليس منه ويغلّفه بالقداسة ويجعله هو الدين وإلا فالسقوط في الجحيم، أو يغريهم باتباع قيادات دينية تضلّهم وتقودهم إلى السعير، أو يدخلهم في صراعات وربما حروب تزهق فيها الأرواح وتهتك فيها الأعراض وتخرَّب الديار باسم الدين ونصرة الدين، أو يزيِّن لهم قتل الآخرين معنوياً بالتسقيط والافتراء والتشويه والتضليل تحت عنوان نصرة الحق وأهله وهكذا))(٣٧).

في حين فسَّر الشمال بـ((تزيين المعاصي وتهييج الشهوات لدفعهم إلى ارتكاب الفحشاء أو المنكر واتباع الأهواء))(٣٨).

وأنه قد أعطى العلاقةِ بين [من بين أيديهم] و [من خلفهم] تعالقاً زمانيّاً متخالفاً (فهو من درجة التضاد الثانية كذلك)، ففسَّر الأولى ببُعدين :

البُعد الأول (القريب أو الدنيوي): وهو ((مستقبلهم وأيامهم القادمة والزمن الآتي فيخوّفهم من الفقر والحاجة إذا أرادوا الإنفاق ومن الموت والقتل إذا نووا الجهاد، أو يعظّم لهم المشقة والعناء إذا همّوا بالحج والعمرة والزيارة ويزين لهم الحياة الدنيا ويمنيّهم بما تحبّ نفوسهم ونحو ذلك))[٣٩]، مُستدعياً لذلك نصّاً قرآنيًّا لتقوية السبك المعجمي للمفردات، قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ**﴾ (آل عمران:١٧٥) وقوله تعالى: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ**﴾ (البقرة:٢٨٦) وقوله تعالى: ﴿ **يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً**﴾ (النساء: ١٢٠)، كي يتناسب مع السياق المعنوي الذي خلقه من ربط النصوص القرآنية مع بعضها الآخر؛ لأنَّ ارتباط المفردات القرآنية بسياقها القرآني الخاص بها قد يعطيها مزيدًا من القيم الدلالية، والأبعاد المعرفية العظيمة، فهي تجليات الحق سبحانه ومن ثم تكون محيطة في دلالتها على مدلولها[٤٠].

البُعد الثاني (البعيد أو الآخروي): وهو أن المراد بما بين أيديهم الآخرة، فينسيهم ذكر الموت وأهواله وما بعده ويشككهم في الآخرة والنشور ونحو ذلك ﴿ **إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً**﴾ (الإنسان: ٢٧).

في حين فسَّر الثانية بالقول: ((أي ما خلّفوه في زمانهم الماضي فينسيهم المعاصي ويسوّف الاستغفار والتوبة ويهوّن عليهم ما ارتكبوه من المظالم، أو يخوفه على ما يترك خلفه من أموال وأولاد وأهل وموقع اجتماعي ليقعده عن الإقدام على الطاعة ويبخلّه عن العطاء، أو يجعل من الماضي وسيرة الآباء والتقاليد الموروثة صنماً يعبده ويتبعه فيصده عن الهداية والصلاح))[٤١].

وأنَّ الشيخ قد أكّد هذا المعنى الذي ذهب إليه، بالدليل الروائي، فقال: ((وبهذا التفسير أورد الطبرسي رواية في مجمع البيان عن الإمام الباقر (ع) (في معنى الآية [من بين أيديهم] أهوّن عليهم أمر الآخرة [ومن خلفهم] أأمرهم بجمع الأموال ومنعها عن الحقوق لتبقى لورثتهم [وعن أيمانهم] أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة [وعن شمائلهم] بتحبيب اللذات إليهم وتغليب الشهوات على عقولهم))[٤٢].

ومع أنَّ لفظتَي (اليمين والشمال) ذُكِرتا في المعجم بهذه الصفة، وهي كون ((الشمال يدلُّ على الجانب الذي يخالف اليمين.. إلا أنَّ الشمال كذلك يدلُّ على دوران الشيء بالشيء، وأخذه إياه من جوانبه))[٤٣]، وهذا المعنى المعجمي منساقٌ دلاليّاً إلى النّص بفعلِ حركة إبليس مع الإنسان، الذي يجهد نفسه لزعزعة استقرار الإنسان والمجتمع وحاجاته المختلفة ومن ثمَّ يتحقق الهدف الأساس من نزول القرآن الذي يتلخص بالهداية والتربية والإرشاد إلى الطريق الأصوب[٤٤]، فظهر من هنا الاتساق التام للمفردات بين المعنيين النصي والمعجمي.

ومن علاقات التضاد التي ألمح الشيخ إلى بروزها في النَّص القرآني كذلك، استشهاده بقوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ،وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**﴾ (الشعراء:٧٨-٨٢).

إذ تظهر هذه التضادات بين المفردات (مرضت / يشفيني – يميتني / يحييني)، وقد أعطاها الشيخ دلالة (المعية الإلهية)، بقوله: ((سيشعر أنه ليس وحيداً في مواجهة الصعوبات والمحن والبلاءات؛ وإنما يكون معه ربٌّ رؤوف رحيم يشفق عليه ويرعاه ويدفع عنه ويحميه ويستجيب لدعائه وطلباته و إذا تأخرت الإجابة فلمصلحته لانَّ ربه يختار له الخير ويكافئه على الإحسان ويعفو عن الإساءة وينصره عند الضعف والانقطاع ﴿ **قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾ (الشعراء:٦٢)، فهي معيّة الإيجاد والهداية، ومعيّة الإطعام والسقي، ومعيّة الشفاء من المرض، ومعيّة البعث والنشور))[٤٥]، فبعد أن عالج الشيخ العلاقات الدلالية بين هذه المفردات، التفت إلى وجود الترابط النّصي بين هذه الآية، والآية التي سبقتها بست عشرة آية ﴿ **قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾، وقوله تعالى في سورةٍ أخرى: ﴿ **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا** ﴾ (التوبة:٤٠)، وهو بذلك يشير إلى تحوّل عجز الإنسان وضعفه إلى قوة واقتدار، وتبدّل خوفه وقلقه بفضل الله تعالى إلى أمن وطمأنينة قال تعالى:﴿ **فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**﴾ (محمد:٣٥)، و يشير هذا إلى وعي اليعقوبي بضرورة تناول النص بصورة متكاملة من أجل خلق اتساق نصي بين المفردات ومعانيها المعجمية.

كذلك من علاقات التضاد، علاقة التعاكس التي تناولها الشيخ اليعقوبي في حديثه عن (فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، إذ تلمّس علاقة التضاد بين المفردات الدالة على معانيها، فإن تحققت واحدة، ارتفعت الأخرى، قال: "الأمر المباشر بها والعاقبة السيئة لتاركها، وإن سبب النجاة هو القيام بهذه الفريضة، أما مَن تركها ومَن فعل عكسها فيشملهم العذاب"، وأورد في ذلك آياتٍ عديدة، تقوم غالبيتها على التلازم الذِكْري بين مفردات : (تأمر / تنهى – معروف / منكر):

كقوله تعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (آل عمران : ١٠٤).

وقوله تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ (آل عمران : ١١٠).

وقوله تعالى على لسان لقمان: ﴿ **يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ (لقمان : ١٧).

وقوله تعالى: ﴿ **لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**﴾ (المائدة : ٦٣).

وقوله تعالى: ﴿ **فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ** ﴾ (هود : ١١٦).

وقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ، فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ**﴾ (الأعراف :١٦٤- ١٦٥).

وقوله تعالى: ﴿ **كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**﴾ (المائدة : ٧٩).

وقوله تعالى: ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ (الأعراف : ١٩٩).

في الآية الأولى تناسبت (الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف) مع (النهي عن المنكر).

ويتحقق الاتساق لهذه القطعة بالترابط مع القطعة التي تليها، حيثُ أعطاها المُفسِّر وصفا كونها "الصفة البارزة للربانيين والمؤمنين"[٤٦] التي يعني ارتقاها بالتلازم، حضور (صفات المنافقين)، وأورد الآيات التي تتناسب سياقياً مع أوصافهم أو ذكرِهم في الكتاب المجيد:

قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (النحل : ٩٠).

وقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾ (الحج : ٤١).

وقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ (الأعراف:١٥٧).

وقوله تعالى: ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ**﴾ (التوبة:٦٧).

وقوله تعالى:﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (التوبة : ٧١).

وقوله تعالى:﴿**الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾(التوبة:١١٢).

ويمكن أن نُحصي هذا التعالق المعجمي في الجدول الآتي:

الألفاظ المتعالقة	اسم السورة	رقم الآيـة	العلاقة المعجميّة
يأمرون / ينهون – المعروف/ المنكر	آل عمران	١٠٤	علاقة تضاد عكسي+ تلازم ذِكري
تأمرون/ تنهون – بالمعروف/ عن المنكر	آل عمران	١١٠	علاقة تضاد عكسي+ تناقض
وامر/ وانـهَ – المعروف / المنكر	لقمان	١٧	تضاد عكسي +تناقض
ينهاهم / الإثم	المائدة	٦٣	ارتباط نصي معجمي
ينهون / اتبعوا – عن الفساد	هود	١١٦	ارتباط نصي معجمي
تعظون/تنهون/ يفسقون– ما ذُكِّروا به/عن السوء	الأعراف	١٦٤– ١٦٥	ارتباط نصي معجمي
يتناهون/ عن منكر	المائدة	٧٩	ارتباط نصي معجمي
وامر/ واعرض – العرف / الجاهلين	الأعراف	١٩٩	تعالق معجمي

ويمكن إحصاء ذاتِ هذه الألفاظ، ولكن في سياق الخطاب الموجه للمؤمنين[٤٧]والصالحين (الربانيين)، أي بهدفِ جعلها صفةً لهم:

الألفاظ المتعالـقة	اسم السورة	رقم الآيـة	العلاقة المعجمية
يأمر/ ينهى – العدل والإحسان/ الفحشاء / والمنكر / والبغي	النحل	٩٠	تلازم ذِكري + تضاد + تقابل
امروا/ نهوا – المعروف/ المنكر	الحج	٤١	تناقض+ تضاد+ تلازم ذِكري
يأمرهم/ ينهاهم – المعروف/ المنكر	الأعراف	١٥٧	تلازم ذكري +تضاد
يأمرون/ ينهون – المعروف / المنكر	التوبة	٦٧	تلازم + تناقض
يأمرون/ ينهون – المعروف/ المنكر	التوبة	٧١	تلازم + تناقض
الآمرون/ الناهون – المعروف/ المنكر	التوبة	١١٢	تلازم + تناقض

مع كون الاختلاف في سياقات الآيات التي وردت فيها هذه العناصر بيِّنا، إلا أنها تعطي دلالة واحدة وهي كون "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صفات المؤمنين، ولازمه أن تاركها يخرج من دائرة الإيمان ولو بمرتبة من المراتب"[٤٨]، فالتضام المعجمي أسهم أولاً في اتساق النص وتماسكه من خلال علاقة عامة هي (أوصاف المؤمنين) و (أوصاف المنافقين)، بما يتوارد معها من مفردات (ينهون /

يأمرون / معروف / منكر)، وثانياً في توارد هذه الأزواج من الكلمات مع بعضها بعلاقاتٍ خاصة، تناقضية أو تلازمية، أو عكسية، فإنَّ هذا الامتداد للعناصر المعجمية من بداية النَّص إلى آخره، يُسهم في اتساق النَّص وربط أجزائه مع بعضها الآخر بهدف تدعيم الدلالة النّصية للرسالة التي أراد منشئ النَّص إيصالها، وجعلها ذات وقع وتأثير في نفس المتلقي؛ لأنها ((تُسهّل عليه ربط الطرف الثاني بالطرف الأول مما يؤدي إلى الاتساق داخل الجملة الواحدة، ويتعداه إلى الربط بين الجمل داخل النص، حتى يُنتج نص مُحكم مترابط لا انفكاك فيه))[٤٩]، بسبب الامتداد الطولي للمفردات وأثرها في الاستعمالات القرآنيّة المنطوية تحت مظلة المعنى العام للمفردة القرآنيّة[٥٠].

والجدير بالذكر هنا، أنَّ الشيخ اليعقوبي قد تناول خمسَ آيات[٥١] مخصوصات من هذه الأزواج المتواردة، بالتحليل الوافي والاستدلال، تارةً ينفي التنافي بينها، وأخرى يدفع الإشكالات والشُبَه الموجَّهة نحوها، ((مُستعيناً بسياق الآيات الشريفة لبيان وإثبات وجوب فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر))[٥٢] مما خلق ترابطاً موضوعيًّا بين نصوصٍ مختلفة، تتناول قضية واحدة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) من زوايا متعددة، تؤدي كل واحدة منها وظيفة وفائدة موضوعية، وهذا ما يتوخّاهُ منهج التفسير الموضوعي، وما يُبرزه منهج التحليل النَّصي.

ومن علاقات التضام كذلك، علاقة الرتبة، التي يضعها الشيخ تحت مبدأ التدرُّج، إذ تناول أولاً التدرّج بين الآيات بصورة شاملة؛ لأنه يرى ((أنَّ التدريجية في الهداية والإصلاح والأخذ بأيدي الناس برفق، هو طريقة القرآن الكريم في إصلاح المجتمع))[٥٣]، فوضع مثالاً قوله تعالى:

- ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾ (البقرة: ٢١٩) في الرتبة الأولى.
- ثم نزل قوله تعالى: ﴿ **لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ**﴾ (النساء: ٤٣)، في الرتبة الثانية.
- ثم نزلت آية المائدة التي أفادت المنع المؤكد الجازم: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ**﴾ (المائدة: ٩٠)، وهي الرتبة الثالثة.

وما يشير لهذا التراتب قول الشيخ: ((ونفس نزول القرآن نجوماً أي مبعَّضاً على مدى (٢٣) سنة إنما يهدف – فيما يهدف إليه – المعالجات الآنيّة آخذاً بنظر الاعتبار الزمان والمكان والظروف الموضوعية وتباين مستوى الناس واستعدادهم للتلقي والتطبيق))[٥٤].

ثم تناوله ثانياً في الآية الواحدة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ** ﴾(المائدة: ٩٠)، فهذا التراتب المنطقي قد خلق نصاً متّسقا ذا أبعاد وظيفية تؤدي رسالة إبلاغية هادفة إلى المتلقي.

ومن إشارات الشيخ التضامّيّة كذلك، قوله في الآية الكريمة: ﴿ **فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ** ﴾ (العنكبوت: ٦٥)، التي تتضمن زوج ألفاظ متوارد بعلاقة متناقضة (في الفلك / إلى البر)، فالذي يكون راكباً على الفلك، فإنَّه بالضرورة يكونُ ليس موجوداً على البر، والعكسُ يصُح، والركوب على الفلك ((الاستعلاء بالجلوس على الشيء المتحرك، وهو متعدّ بنفسه وتعديته في الآية بـ (في) لتضمنه معنى الاستقرار أو ما يشبهه، والمعنى: فإذا ركبوا مستقرين في الفلك أو استقروا في الفلك راكبين، والآية تحكي عنهم تناقضاً آخر وكفراناً للنعمة، بدليل قوله تعالى: **{**ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون**}** [العنكبوت: ٦٦]))[٥٥].

والشيخ اليعقوبي يُجمل هذا التناقض السلوكي عندهم بإطلاقه على كلِّ مَن يعبد الله على حرفٍ، فيقول: "وليقدر الإنسان النعم الإلهية فيعرف قدرها حينما يفقدها؛ ليحاول استغلالها في المستقبل فيما فيه رضا الله سبحانه، لكن الله يُخبر عن غالب البشر أنهم حينما تعود إليهم حالة الرخاء والدعة فإنهم ينسون حالة الحاجة والاضطرار"[٥٦]، وهذا عينُ التناقض الذي أبرزه توارد العنصرين المعجميين آنفًا والذي تأكَّدَ معناه دلالياً ونصّيا بما استشهد به المُفسِّر﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ، فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ، أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ** ﴾ (التوبة: ٧٥-٧٨)، مُساهمةً في اتساقِ النص وإجلاء معناه، واللطيف في التعبير القرآني أن توارد العناصر على هذا التنظيم ليس مجرد بيان تناقض حالة معيّة أو سلوك،إنما يكونُ لهذا التعداد أثرٌ في تبيان النعم الإلهيّة والتنويع فيها كما في قوله تعالى:﴿**إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى،وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى**﴾[٥٧].

- التنافر:

من علاقات التنافر التي يُفسِّر الشيخ على وفقها موضوعاً معيَّناً، ما جاء في تفسيره للآيتين من قوله تعالى: ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ (الحشر: ٨)، وقوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ١٧٧).

فقد وردت في الآية السابقة ألفاظ متنافرة، يجمعها أصلٌ واحد، ألا وهي:

- الفقراء المهاجرين.
- مَن آمَنَ بـ (الله – اليوم الآخر – الملائكة –الكتاب – النبيين).
- (مَنْ) آتى المال (ذوي القربى – اليتامى – المساكين – في الرقاب)
- (مَنْ) أقامَ الصلاة .
- (مَنْ) آتى الزكاة.
- الموفون بعهدهم.
- الصّابرين (في : البأساء – الضّراء – حين البأس).

ترتبط هذه الأصناف بعلاقةٍ عامة مع لفظ عام يجمعها، وهو وصف (الصادقين/ أولئك الذين صدقوا)، ولعلها توصف بالتنافر قبل تحققها لإشارة الشيخ أنَّ "الكون مع الصادقين مطلق ولم يحدد بناحية او مورد معين، وهذا له دلالات عديدة على مستوى الإلزام والإثبات وعلى مستوى المنع والنفي[٥٨]، إذ يُفصِّلُ ذلك بالتحليل:

((أما على مستوى الإثبات فان الآمر بالكون مع الصادقين يعني الاعتقاد بهم والأخذ عنهم واتباعهم والتسليم لهم والسير على نهجهم ...)) [٥٩]، ويرى أنه: ((على مستوى النفي فإنَّ الكون مع الصادقين يعني عدم الانسياق وراء الشهوات والأهواء وعدم اتباع أي داعٍ لم يأمر به الصادقون، ويعني رفض الشعور بالإحباط واليأس التوجه نحو العزلة والانزواء والانسحاب من العمل الرسالي المثمر كردّ فعل لحصول بعض الحالات...)) [٦٠].

فعدم تحقق هذه القاعدة، يُنبئ بوجود تنافرٍ في سلوكياتهم، فليس كل مؤمن بالله واليوم الآخر والكتاب والرسُل، يأتي المال، أو يأتي الزكاة، أو يُوفي بالعهد، وإنِّ ليس كل الفقراء الذين أُخرِجوا في سبيل الله، يبتغون فضل الله .. وهكذا؛ لأنَّ ((الخبر حينما يوصف بالصدق فهذا يعني مطابقته للواقع، كما لو أخبرت عن زيد أنه قائم، وهو قائم فعلاً، فإن الخبر صادق، أما وصف الإنسان بأنه صادقٌ فهذا يعني مطابقة ظاهره لباطنه وأقواله لأفعاله وموافقتها جميعاً للحق، لاحظ قوله تعالى: ﴿ **إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾ (المنافقون:١) فكلمتهم حق وصدق لكنهم لم يكونوا صادقين؛ لأن باطنهم لم يكن كظاهرهم وفعلهم ليس كقولهم، لذا ثبت الله تعالى صدق الكلمة ووصفهم بالكاذبين، ولو وصفوا بالكاذبين من دون تثبيت هذه الحقيقة لكان وصفهم بالكذب يشمل ما شهدوا به وهو خلاف الواقع))[٦١]، وإلا ما جاء الخطاب موجَّهاً للمؤمنين (يا – أيُّها – الذين –

آمنوا) ، والغرض منه أمرهم بالتقوى (اتقوا – الله)؛ والنتيجة: الكون مع الصادقين (وكونوا – مع – الصادقين)، ولهذا النداء عدَّة نكات(٦٢):

١. تشريف المؤمنين بتوجيه الخطاب إليهم دون غيرهم من المأمورين.

٢. لإلفات عناية المؤمنين وإثارة انتباههم إلى ما يكمل به إيمانهم .

٣. إشعارهم بمسؤوليتهم الخاصة كمؤمنين عن هذا الذي دعوا إليه أي إنكم بصفتكم مؤمنين يجب أن تكونوا كذلك، ولو كانت الجملة بلا أداة نداء ومنادى واقتصرت على بيان الأمر المطلوب **{اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ}** لما حصلت هذه العناية ولا الالتفات إلى المسؤولية أو كانت بدرجة أقل، كما أنك حين تخاطب الشباب بتوجيه ما، تبتدئ كلامك بـ (يا أيها الشباب) لإلفات نظرهم إلى أن هذا الخطاب موجه لهم بما هم شباب، أو تقول أيها العراقيون عند طرح قضية وطنية تهمهم، أو يا طلبة الحوزة العلمية.

فهم إذن على درجاتٍ متفاوتة، ((ولذا مدح الله تعالى قوماً من المؤمنين؛ لأنهم صدقوا وثبتوا على الصدق قال تعالى : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾ (الأحزاب٢٣)))(٦٣).

إنَّ هذا الإجراء يبرز قدرة اللغة على التنويع في استخدام الوسائل المعجمية، ويشير إلى دورها في بناء النمط الحجاجي في النَّص(٦٤)، الذي يحتج به الشيخ بإطباق لفظ الصادقين على المعصومين، بقوله أنَّ: "العنوان إذا أطلق فإنه ينطبق على المعصومين (عليهم السلام)؛ لأنهم مَن ينطبق عليهم تعريف الصادقين، بقول مطلق أي على الدوام من دون استثناء أو اختراق، وتشهد الآية نفسها على أن المراد بالصادقين المعصومون (عليهم السلام) بدلالة أكثر من قرينة" يذكرها في محلها(٦٥)، وإنَّ هذا البناء يخضع لمتطلبات الإجمال والتفصيل والخلاصة، فيبدأ طوليًّا ويتوزع أفقيًّا كلٌّ من موقعه(٦٦) وقد جعل هذا الترابط بين الألفاظ المعجمية من النص قطعة لغوية متسقة، وعالقة في ذهن المتلقي؛ نتيجة لتعدد دلالاتها بفضل التنافي والتنافر الحاصل بين أطرافها.

ومما تناوله الشيخ بالتحليل، علاقة تضاد انبثقت من تحليله لقوله تعالى: {لا خير في كثيرٍ من نجواهم}[النساء: ١١٤]، فالنجوى، من النَّجو: وهي السّر، كالنَّجي، وناجاهُ مناجاةً، ونِجاءً، سارَّه، وانتجاه: خصَّه بمناجاته (٦٧). والإسرار والمناجاة بين القوم هو من صنف الكلام؛ لأن التواصل كائنٌ به؛ ولذا فإنَّ الشيخ أعطى لـ (النجوى) دلالة (الكلام)، بدليلِ تقسيمه إلى نوعين: (الطيب – الخبيث)؛ فوضَعهما في علاقة تقابلية متضادَّة (الكلمة الطيبة / الكلمة الخبيثة) إذ قال بعد أن أشار إلى أهمية الكلام الحسن والطيِّب: ((وفي المقابل فإن الكلمة السيئة لها ضرر بليغ ومدمّر وأنَّ كثيرًا من الكبائر التي وعد الله بها النار، مرتبطة بالكلمة، كالغيبة والنميمة والبهتان والكذب والافتراء والسب والشتم والإيذاء وإشاعة الفاحشة وغيرها)) (٦٨).

إنَّ الكلمة الطَّيّبة من: ((طابَ يطيبُ طاباً وطيباً وطيبةً وتطياباً: لَذَّ وزكا .. والحُسنى والخيِّر والخِرة، وهي شجرةٌ في الجّنة، و أطابَ: تكلَّمَ بكلامٍ طيِّبٍ))(٦٩)، أما الكلمة الخبيثة، فالخبيث: ضدُّ الطَّيِّب، خَبُثَ خُبثٍا وخباثةً و خباثِية، والرديء الخبثُ، والخِبْثةُ: أن لا تكون طِيَبَةً، والشجرة الخبيثة: الحنظل أو الكُشوثُ، والمَخبَثةُ: المَفْسَدة(٧٠).

يتَّضحُ من هنا أنَّ المعاني التي تدور حولها مفردتا (الطيب والخبيث) هو عين ما تحمله مادتاهما اللغوية، وهما متضادتان معجمياً ونصِّيّاً، وإنَّ الشجرة في الجنة تُقابل شجرة الحنظل، فالدلالة التي تُفيدها العلاقة المعجميّة بينهما (الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة)، مع اشتراكهما في أصل (الكلام) أجْلَت بوضوح ما أراد المنشئ إيصاله؛ لتنظيم الأطر السلوكية للإنسان بدءاً من "نجواهم"، هذه المناجيات التي قد لا يلتفت الإنسان إلى أثرها وتأثّرها بعضها ببعض، إذ إنَّ التواصل الذي تريده اللغة إنما يبدأ من تبادل التأثير بين الأطراف، الأمر الذي من شأنه أن يُهيّأ استجابة كل طرف من أطراف التواصل بما يُلقى إليه؛ ولذا فإنَّ القرآن يحدد للمسلم هذا المسلك؛ لأن ((الكلمة أوسع القنوات الموصِلة إلى رضا الله تبارك وتعالى؛ فمِن خلالها تكون النصيحة وبها تتم الموعظة وتجري الهداية ويتحقق الإصلاح وينتشر العلم والمعرفة، وتُبنى الحضارة وتتكامل التربية، فهي وعاءٌ لهذه الطاعات العظيمة))(٧١).

وبناءً عليه جعل الكلمة أصلاً لمتقابلين اثنين، هما (الطيبة والسيئة):

الأولى: أن تكون نافعة بنّاءة ﴿ **كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾.[إبراهيم: ٢٥].

الثانية: أن تكون ضارة وخبيثة ﴿ **وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ**﴾[إبراهيم: ٢٦].

إنَّ هذا المشهد – مشهد الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة، اجتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار– ((هو مشهد مأخوذ من جو السياق، وإن الكلمة الطيبة – كلمة الحق– كالشجرة الطيبة ثابتة سامقة مثمرة .. ثابتة لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل ؛ ولا تقوى عليها معاول الطغيان _ وإن خُيِّل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان – سامقة متعالية تطل على الشر والظلم والطغيان من عل – وأن خُيِّل إلى البعض أحيانا أن الشر يزحمها في الفضاء – مثمرة لا ينقطع ثمرها؛ لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آناً بعد آن.. وإنَّ الكلمة الخبيثة – كلمة الباطل – كالشجرة الخبيثة قد تهيج وتتعالى وتتشابك؛ ويُخيَّل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى ، ولكنها تظل نافشة هشة، وتظل جذورها في التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض.. وما هي إلا فترة ثم تُجتثُّ من فوق الأرض، فلا قرار ولا بقاء))(٧٢)، هذا التصارع بين الطرفين

المتقابلين المتضادين (الطيِّب والخبيث) أو لنقل كلمة: (الحق والباطل) قد خلق اتساقاً في المعنى النصي للمشهد؛ بسبب انتقال الدلالة المعجمية إليه، وتفعيلها للربط بين معانيه.

الخاتِمــة:

١. تُشكّل آلية التضام جزءاً كبيراً ومهمّاً من آليات اتساق النصوص، وبالأخصِّ الاتِّساق المعجمي؛ ذلك أنّها تجمع بين العناصر اللفظيّة تحت مسمّى أو حقل مُعيّن، فيؤدي ذكر الأوّل إلى استحضار الآخر، وبهذه الطريقة تتّسق النصوص والمقاطع مع بعضها الآخر.
٢. إنَّ ظاهرة التَّضام في النصوص القرآنيّة التَّفسيريّة لها أثر في تشكيل الدّلالة النّصية وكشف المعاني الغائبة عن سطح النَّص، بواسطة العناصر المُتضامّة.
٣. أشار الشيخ اليعقوبي كثيراً إلى تطبيقات هذه الظاهرة في تفسيرِه (من نور القرآن)، وبعلاقات مختلفة تنوَّعت بين التنافر، والتضاد والتدرج والرُّتب وغيرها، مع عدم ورود المصطلح بعينه عنده.
٤. ارتبطت العلاقات المكوِّنة للتضام بعمق الدلالة النّصيّة، فعن طريقها يسوق الشيخ المفسّر معاني وصوراً لم تكن لتظهر لولا الترابط والاتساق بين هذه العناصر المعجميّة، ومن ثمَّ عدم وضوح الرسالة المقصودة من التفسير الموضوعي للموضوع الذي تتضمنه الآيات القرآنيّة.

الهوامش:

(١) لسانيات النص، د. محمد خطابي: ١٣٠.

(٢) المصدر نفسه : ٢٥ .

(٣) التضام وقيود التوارد :١٠٤ .

(٤) يُنظر: روعة الكلام في ضوء قرينة التضام، دراسة تطبيقية في نهج البلاغة: ٢٧٩.

(٥) النص والخطاب والإجراء : ١٠٣.

(٦) يُنظر: وظائف الاتساق النحوي والمعجمي في العربية" تطبيق على سورة هود" : ٤٧.

(٧) يُنظر: مباحث حول نحو النص: ٣٩.

(٨) مفاهيم نقدية، رينيه ويليك، ترجمة : د. محمد عصفور : ٥٣.

(٩) البيان في روائع القرآن : ١٥٤.

(١٠) شعر محمد مهدي الجواهري: دراسة نحويّة نصيّة: ٩٢.

(١١) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان: ٩٤.

(١٢) البيان في روائع القرآن، د. تمّام حسّان: ١٥٤. وينظر: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب: ١٢٧.

(١٣) مدخل إلى علم لغة النص: ٧٢.

(١٤) اللغة العربية معناها ومبناها : ٢١٦ – ٢١٧ . ويُنظر : مقالات في اللغة والأدب: ١٣٦/١

(١٥) لسانيات النص: ٢٥.

(١٦) مدخل إلى علم لغة النص: ٨١.

(١٧) مباحث حول نحو النص: ٣٨.

(١٨) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق (الخطابة النبوية أنموذجا): ٣٤٢.

(١٩) التماسك النصي في شعر يحيى السماوي: ٦٣. وينظر: نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي: ١١٣. وينظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، د. جميل عبد المجيد: ١٠٨.

(٢٠) نحو النص، أحمد عفيفي: ١١٣.

(٢١) المصدر نفسه: ١١٣ ، ١٠٥-١٠٦.

(٢٢) علم لغة النص النظرية والتطبيق، عزة شبل: ١٠٩.

(٢٣) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: ١٤٥.

(٢٤) نفسه ، وينظر : علم الدلالة أحمد مختار عمر: ١٠٥-١٠٦.

(٢٥) علم لغة النص النظرية والتطبيق، د، عزة شبل: ١٠٩.

(٢٦) ينظر: علم لغة النص النظرية والتطبيق: ١٠٩.

(٢٧) شعر محمد مهدي الجواهري: دراسة نحوية نصية: ١١٢.

(!) . مصاحبة المعجمية في النص القرآني: ١٨.

(٢٨) المصدر نفسه: ويُنظر علم لغة النص النظرية والتطبيق: ١١٠.

(٢٩) لسانيات النص، ٢٣٨.

(٣٠) أثر المستوى التركيبي في بناء الدلالات النصية: ١٣٦.

(٣١) يُنظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: د. نادية النجار: ٣٤٤ .

(٣٢) من نور القرآن ٤/ ٣١.

(٣٣) المصدر نفسه.

(٣٤)جواهر البلاغة: ٣١٤. ويُنظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية : ١١٠.

(٣٥) من نور القرآن: ٤/ ٣٤.

(٣٦) المصاحبة اللغوية وأثرها دراسة في نهج البلاغة ، فضيلة عبوسي محسن العامري، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب جامعة الكوفة، مكتبة الروضة الحيدرية، ١٤٣٥هـ / ٢٠١٣م : ١٥٤.

(٣٧) مصدر نفسه.

(٣٨) من نور القرآن ٤/ ٣١.

(٣٩) نفسه.

(٤٠) يُنظر: نظرية أرواح المعاني آليّة لتحليل الخطاب القرآني: ٨٢.

(٤١) من نور القرآن: ٤/ ٣١.

(٤٢) المصدر نفسه: ٣٥.

(٤٣) معجم مقاييس اللغة، باب الشين: ٣ / ٢١٥-٢١٦.

(٤٤) يُنظر: السمات العامة للتفسير المعاصر دراسة لغوية تحليليّة: ١٥٨.

(٤٥) من نور القرآن: ٤ / ٢١٠.

(٤٦) من نور القرآن: ٣/ ٢٢٩.

(٤٧) أشار الشيخ صاحب التفسير إلى هذا الإختصاص في القبس التالي (٦): ٣/ ٢٣٤ ، و ٣/ ٥٩.

(٤٨) من نور القرآن: ٣/ ٢٣٠.

(٤٩) وظائف الاتساق النحوي والمعجمي في العربية "تطبيق على سورة هود": ٥٠.

(٥٠) يُنظر: نظرية أرواح المعاني آليّة لتحليل الخطاب القرآني، ٨٩.

(٥١) يُراجَع: من نور القرآن: ٣/ ٢٣٤- ٢٧٢.

(٥٢) يُنظر: الدلالة القرآنية عند الشيخ محمد اليعقوبي: ٢٠٧.

(٥٣) يُنظر: من نور القرآن: ٣/ ٧٢-٧٣.

(٥٤) المصدر نفسه، المكان نفسه.
(٥٥) يُنظر: الميزان في تفسير القرآن: ١٦ / ١٥٠.
(٥٦) من نور القرآن: ٣/ ٣١٤.
(٥٧) ألفاظ اللباس في القرآن الكريم دراسة لغوية معجمية: ٧٧.
(٥٨)من نور القرآن: ٢ / ٦٦.
(٥٩) المصدر نفسه.
(٦٠) المصدر نفسه.
(٦١)المصدر نفسه: ٢/ ٦٦ – ٧٧.
(٦٢) المصدر نفسه: ٦٤.
(٦٣) المصدر نفسه: ٢ / ٦٧.
(٦٤)يُنظر: أثر الربط المعجمي في اتساق النص القرآني– سورتا الرّحمن والواقعة انموذجا: ١٣٥.
(٦٥) يُنظر: من نور القرآن: ٢/ ٦٨– ٦٩.
(٦٦) بنية النص القرآني في كتب الإعجاز عند المحدثين، ١٤٢٦: ٢٣٦.
(٦٧) القاموس المحيط ، باب النون ، مادة (نجو)، الفيروزآبادي: ١٥٨٦.
(٦٨) من نور القرآن: ٣/ ٣٥٢.
(٦٩)القاموس المحيط: ١١٥.
(٧٠) القاموس المحيط: ١٦٧.
(٧١) مصدر نفسه: ٣/ ٣٥١.
(٧٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، المجلد الرابع: ٢٦٧– ٢٦٨.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.
٢. أثر الربط المعجمي في الاتساق القرآني- سورتا الرّحمن والواقعة انموذجا ،عبد الملك العايب، رسالة ماجستير، ٢٠١٣/ ٢٠١٢م.
٣. أثر المستوى التركيبي في بناء الدلالات النصية، علي شاحطو، مذكرة ماجستير، جامعة وهران_السانيا، ٢٠١١-٢٠١٢.
٤. ألفاظ اللباس في القرآن الكريم دراسة لغوية معجمية، د. بشير سعيد سهر المنصوري، مجلة آداب البصرة، العدد (٤٧) ، ٢٠٠٨م.
٥. البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، د. جميل عبد المجيد، الهيأة المصرية العامة للكتاب، الأسكندريّة، ١٩٩٨م.
٦. بنية النص القرآني في كتب الإعجاز عند المحدثين(رسالة ماجستير)، يعقوب يوسف خلف الياسري، جامعة البصرة ، كلية التربية، ٢٠٠٥م.
٧. البيان في روائع القرآن، د. تمّام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
٨. التضام وقيود التوارد، د. تمام حسان، مجلة المناهل، تصدرها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، الرباط – المغرب، العدد السادس، يوليو ١٩٧٦م.
٩. التماسك النصي في شعر يحيى السماوي، د. باسم خيري، دار تمّوز، دمشق، ط١ ، ٢٠١٧م.
١٠. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، إشراف : صدقي محمد جميل، مؤسسة الصادق، طهران.
١١. الدلالة القرآنية عند الشيخ محمد اليعقوبي في تفسيره (من نور القرآن)، أحمد زهير عبد العالي، دار الصادقين، ط١، ١٤٤١هـ – ٢٠٢٠م.
١٢. السمات العامة للتفسير المعاصر دراسة لغوية تحليليّة، م. رياض عبد الرحيم الباهلي، مجلة أبحاث البصرة، العدد ٤د – كان الأول، ٢٠١٩م.
١٣. شعر محمد مهدي الجواهري: دراسة نحوية نصية(أطروحة دكتوراه)، صالح عبد العظيم فتحي خليل الشاعر، جامعة القاهرة، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
١٤. علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٥، ١٩٩٨م.
١٥. علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق (الخطابة النبوية أنموذجا)، د. نادية رمضان النجار، مجلة علوم اللغة، ع٣، ٢٠٠٦م.
١٦. علم لغة النص النظرية والتطبيق، د، عزة شبل، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩م.
١٧. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٣٢ ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، المجلد الرابع.

١٨. القاموس المحيط، باب النون، مادة (نجو)، الفيروز آبادي، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمن المرعشي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان ، ط٢ ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
١٩. الكلام في ضوء قرينة التضام، دراسة تطبيقية في نهج البلاغة، م. د. قصي سمير عبيس، مجلة المبين، العدد السادس، ٢٠١٨م.
٢٠. لسانيات النص، د. محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩١م.
٢١. اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسّان، دار الثقافة، ١٩٩٤م.
٢٢. مباحث حول نحو النص(اللغة العربية)، (كتاب الكتروني)، أ.د. عبد العظيم فتحي خليل، شبكة الألوكة.
٢٣. مدخل إلى علم لغة النص، إلهام أبو غزالة وآخرون، مطبعة دار الكاتب، ط١، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
٢٤. المصاحبة اللغوية وأثرها دراسة في نهج البلاغة ، فضيلة عبوسي محسن العامري ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب جامعة الكوفة ، مكتبة الروضة الحيدرية ، ١٤٣٥هـ / ٢٠١٣م.
٢٥. مصاحبة المعجميّة في النّص القرآني، أ.د. سالم يعقوب يوسف/ أزم. خليل عبد المعطي المايع، مجلة آداب البصرة، العدد: ٧٩، ٢٠١٧م.
٢٦. المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، دراسة معجمية، د، نعمان بوقرة، عالم الكتب الحديث/ جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن،ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م.
٢٧. معجم مقاييس اللغة، احمد بن فارس(٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩هـ/١٩٧٩م.
٢٨. مفاهيم نقدية، رينيه ويليك، ترجمة: د. محمد عصفور، عالم المعرفة (سلسلة ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب– الكويت)، صدرت في: يناير ١٩٨٧م.
٢٩. مقالات في اللغة والأدب: د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م
٣٠. الميزان في تفسير القرآن، العلامة الطباطبائي، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية – قم المقدسة.
٣١. نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، د. أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.
٣٢. النص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة: د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
٣٣. نظرية أرواح المعاني آليّة لتحليل الخطاب القرآني، أ.م.د عباس عبد الحسين غياض، (بحث)، مجلة آداب البصرة، العدد ٩٤ ، ٢٠٢٠.
٣٤. وظائف الاتساق النحوي والمعجمي في العربية "تطبيق على سورة هود"، معاذ هزاع علي الزعبي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن– إربد، ٢٠١٢/ ٢٠١٣م.